حركة الإصلاح ومآلاتها في الفكر الإسلامي

محمد المكتومي

في مُنتصف القرن التاسع عشر، شهدَ العالمُ الإسلامي حركة إصلاح واسعة، قادها كبار مُفكّري الأمة الإسلامية، تميَّزت بإثارة النقد الذاتي للحالة العامة للمجتمع الإسلامي، وتقييم واقعه الأخلاقي والسياسي وعيوب نظامه الاجتماعي والثقافي في فترة يموج فيها العالم بالمتغيرات الحداثية.

يسرد الكاتب علي مراد في مقاله «إشكالية التأخر والبحث عن النقد في الفكر الإسلامي الحديث»، قراءات الإصلاحيين في تحليل حالة الجمود السياسي والاجتماعي على الواقع الإسلامي؛ منهم: المصلح محمد عبده، عندما كان مُفتيا على مصر؛ فقد نشر سلسلة من المقالات الإصلاحية في مجلة المنار، والتي حملت عنوان «الإسلام والنصرانية في مواجهة العلم والمدنية»، خلُص فيها إلى عيوب طبقة العلماء المسلمين، والجهل والخرافات الشعبية وفي أمية النساء وعدم تعليمهن وفي إهمال العلوم الطبيعية في الوسط الإسلامي، كما حمَّل النظام العثماني استخدامه الدين لخدمة السلطة وعدم تشجيعه نشر العلم والمعرفة.

والمتمعِّن جيدا في الأسباب التي طرحها محمد عبده، يجدها تركز بشكل كبير على الحالة العلمية التي وصل إليها العالم الإسلامي آنذاك، بينما ركز المصلح السوري الكبير عبد الرحمن الكواكبي على الأسباب الأخلاقية والدينية والسياسية في تحليله لأسباب تأخر المسلمين؛ فيقول إنَّ التأثيرات الاجتماعية والثقافية للفهم المغلوط لعقيدة القضاء والقدر، هذا الفهم الذي ساعد على نمو الاتجاهات الجبرية على حساب المبادرة الحرة للإنسان، وروح التخلي عن العالم والهروب منه، وتشدَّد علماء الشريعة على النقيض من بساطة العلم السمحة التي كانت منتشرة في عهد الأمة الإسلامية الأول، واعتقادهم نتيجة لهذا التشدد بأنَّ العلوم الكونية والمعارف العقلية مناقضة للعقيدة الإسلامية، كما أشار الكواكبي إلى موضوع التشاؤم المتولد من الإحساس باستحالة لحاق المسلمين بالشعوب المتقدمة في الغرب والقبول بالذل خوفا من بذل أدنى مجهود، كما أشار إلى قضية إعطاء الوظائف الإدارية والعسكرية القيمة العليا على حساب المهن والحرف، وأتفق مع محمد عبده على الصعيد السياسي في مسألة استبداد النظام العثماني ولومه في تأخر المسلمين.

ويعرِّج الكاتب علي مراد بعد ذلك إلى النظرة الاستشراقية للعالم الإسلامي من خلال الروائيين وكتّاب المقالات والرحالة وبعض النخب الأوروبية الذين كان الشرق يمثل لهم مكانا للانعتاق والانسراب بعيدا عن رقابة المدن الصناعية وقبائح الحضارة المادية الجشعة، ويوضِّح ذلك تعبير ألبرت سامان عن مكنون جيل أدبي كامل بكلماته الشهيرة: «أنا كبرت، أنا أحلم بالشرق، أنا أحلم بالأنوار». ورغم أن البلاد الإسلامية التي حلّ بها الرحالة الأوروبيون قد أثارت مشاعرهم وأحاسيسهم الرقيقة، فإنه يجب القول بأن علاقتهم بأهالي البلاد أفضت إلى خيبات أمل كبيرة نتيجة للعادات الشرقية من المغرب إلى الهند وتقاليده ونوعية حضارته المادية، وغياب «الغريب والمختلف» الذي يُبحث عنه في أرض الإسلام حسب ما يشير إليه الكاتب، ولعلي أختلف مع الكاتب في هذا الصدد في العمومية التي أطلقها عندما أشار إلى «خيبة أمل» المستشرقين؛ لأنه رغم تخلف المسلمين فإنَّ جانب الروح والغريب الذي يبحث عنه المستشرق كان موجودا إلى حد ما إذا ما قورن ذلك بالمادية السائد في الحضارة الأوروبية.. نعم نستطيع أن نقول إن الصورة الاستشراقية التي رسمها الأوروبيون في ذهنهم تجاه الشرق قد تكون غير المتوقعة بالنسبة لهم، إلا أنه من الإجحاف أن نقول بأن ذلك قد بدد أوهامهم في البحث عن الجديد في البلاد الإسلامية.

ثم يتطرَّق الكاتب لتحليل المشهد الثقافي في الداخل الأوروبي، ويأخذ مثالا على ذلك في فرنسا التي كان بها تياران:

- التيار الأول: تيار هامشي جدا لم يكن له ذلك التأثير القوي في الوسط الثقافي، ولا يملك قوة تكوين ضغط على التيار الآخر، وكان يميل إلى الرومانسية والانحراف عن المركزية الأوروبية، وكان متعاطفًا مع الشعوب الأخرى «تأثيره برز في الأوساط الأدبية».

- التيار الآخر وهو السائد: فكان ذا أيديولوجية استعمارية مكونة من الطبقة السياسية ورجال الأعمال، وكان ما يزيده قوة هو الأوساط الجامعية التي كانت بيئة مشجعة لولادة مذهب متماسك في العلوم الاستعمارية.

وعلى الرَّغم من أن المستشرقين والنخب الأوروبية أدانوا المسلمين في العيوب والمفاسد التي وجدوها فيهم على أنها أمور خلقية مرتبطة بهم كعرق أو فئة اجتماعية أو طائفية، إلا أنهم في نهاية الأمر حملوا الإسلام نفسه المسؤولية الكاملة في الحالة المتردية التي وصلت إليها الشعوب الإسلامية، وتجسَّد ذلك بشكل لافت للنظر في «أطروحة رينان»، الذي أشار فيها إلى أن:

- الحركة الفكرية الممتازة التي عرفت في التاريخ الإسلامي بشكل كامل من نتاج الفرس واليهود.

- الدين الإسلامي هو حجر على العقل الإنساني، وأضر به، وجعل البلاد التي فتحها حقلا مغلقا على الثقافة العقلانية التي ينتهجها العقل البشري، إضافة إلى أن الدين في ذاته يرفض الروح ولا يشجع على البحث العقلي عن الحقيقة.

والمتأمل في تحليلات أطروحة رينان يجد أنها بعيدة جدا عن الجانب المادي الذي كان يسود المجتمع الإسلامي من الظلم والأنظمة الاستبدادية، والصراعات الداخلية، والاجتياحات الأجنبية التي تركت أثرا حاسما في الانحطاط والتخلف.

... وقف الكثير من المصلحين الذي سخروا كتاباتهم وأقلامهم، ووقفوا سدا منيعا لمثل هذه التهم الجزاف التي كانت تضرب الإسلام كدين في ذاته، منهم رشيد رضا الذي قال: لقد أتلفنا أقلامنا وصوتنا في الكتابة والتكرار بأن عيوب المسلمين لا يمكن أن تنسب إلى دينهم بل إلى البدع التي أدخلوها عليه، وإلى أن المسلمين قد ارتدوا الإسلام كمن يرتدى معطف من الفراء بشكل مقلوب»، وها هو شكيب أرسلان يقول مقولته المشهور: «الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر».

لقد أثارتْ أطروحة رينان المصلحين الإسلاميين إلى إضرام روح التغيير والنهضة في نفوس شعوبهم من أجل الخروج من حالة الركود الاجتماعي والثقافي، ولم تقتصر كتاباتهم فقط بالرد على الأطروحات الغربية المغلوطة أحيانا والمجحفة بحق الإسلام والمسلمين.

ويتطرَّق الكاتب في نهاية مقاله إلى حالة التغيير التي شهدها المجتمع الإسلامي في أسلوب خطابه الذي تميز بظهور مصطلحات جديد غيَّرت نوعا ما في الوعي المجتمعي، وبثت روح المسؤولية تجاه الأمة، ونجد من هذه المصطلحات: «الإصلاح»، «التغيير»، «التقدم»، «اليقظة الروحية والاجتماعية للأمة»، وتصدر العنوان في الكتابات الأدبية والصحفية في تلك الفترة.. ودور الجمعيات الداعية إلى ترقية الأنشطة الثقافية والسياسية، كما برز جيل من الشباب الذين أثارتهم حركة الإصلاح والتغيير والتجديد، فاشتدت الصراعات الفكرية قبل ذلك في الجامعات بين «أنصار القديم» الذي اتهم «أنصار التجديد» بالهرطقة الدينية والخروج عن ثوابت الدين. وفي المقابل، فإنَّ أنصار التجديد قد انتقدوا بشدة ما سموه «العقلية الرجعية» المتخلفة لأنصار التراث، ولكن شيئا فشيئا بدأت تدرك الشبيبة الإسلامية نقاط التقارب بين الأيديولوجية الوطنية والأيديولوجية الدينية الجديدة، ورغم ذلك لم تكن للشباب التجديديين رؤية فكرية متكاملة لأوضاع أمتهم، ومع ذلك كان لهم أثر بارز في مجتمعهم؛ ففي مصر خرج طلاب جامعة الأزهر مُضربين عن الدروس، مطالبين بتحديث المناهج التعليمية عندهم. وفي السنة التالية، خرج طلاب جامعة الزيتونة في تونس بإضراب مماثل. كما خرجتْ جماعات في تركيا مطالبة بتغيير شامل في مؤسسات الدولة العثمانية انتهت بخلع عبدالحميد الثاني على الرغم من قبضته القوية. وفي مصر، شكَّل الشباب قوة ضغط ضد السلطات البريطانية المحتلة لبلادهم وتمكنوا من إجبارهم على الاعتراف بسيادة الدولة المصرية عام ١٩٢٢.

... لقد أفرزت أيديولوجيا النهضة التي قادها التيار الثقافي العلماني وتيار التجديد الإسلامي الذي دشَّنه في العالم العربي محمد عبده وتلامذته، ودشنه في العالم الهندي أحمد خان، عدَّة منشورات نهضوية معبِّرة عن قضايا الأمة؛ منها: جريدة «الترجمان»، وجريدة «الحاضر» في تونس، و«المنار» في مصر على يد رشيد رضا، و«العرفان» التي أسسها في لبنان الشيخ أحمد عارف الزين.

تلك الحركة الإصلاحية التي قادمها كبار مصلحي العالم الإسلامي، أفرزتْ لنا نتاجا علميا غزيرا في الفكر الإسلامي على الصعيد الثقافي، كما خلصتْ فيما بعد إلى ثورة ووعي المجتمع العربي وطرده للمستعمر من المشهد السياسي، إضافة إلى حركة التغيير في التعليم بما يناسب الموجة الحداثية التي اجتاحت العالم آنذاك.. وفي اعتقادي أن تلك الحركة النهضوية كانت بمثابة ردة فعل إلى حد ما على الأطروحات والأفكار الغربية ضد الإسلام والمسلمين.. ولكن الحال ما لبثت أن عادت كما نراها في وضعنا الحالي، بل وأشد؛ من خلافات مذهبية وصراعات داخلية وتغيرات سياسية.. فهل ستخرج الأمة من ذلك ونرى حركة نهضوية قريبا؟

Mohd22king@hotmail.com